فك الأسرى الأندلسيين من دار الحرب

- قراءة أولية في العصر الأموي -

١٣٨ - ٤٢٢هـ / ٧٥٦ - ١٠٣١م

الدكتور : خالد بن عبدالكريم البكر*

* بكالوريوس قسم التاريخ جامعة الملك سعود سنة ١٤٠٤هـ .
- ماجستير قسم التاريخ من الجامعة نفسها عام ١٤١٢هـ.
- دكتوراه قسم التاريخ من الجامعة نفسها عام ١٤٢١هـ.
- يعمل الآن عضو هيئة التدريس قسم التاريخ - كلية الآداب بالجامعة نفسها.

توطئة :

موضوع الأسرى المسلمين من أبناء الأندلس في دار الحرب.. من الموضوعات التاريخية التي لم تنل حظاً وافياً من الدرس والبحث ؛ وبالذات في العصر الأموي ١٣٨ - ٤٢٢هـ / ٧٥٥ - ١٠٣٠م، وذلك بالرغم من أهمية الموضوع المتعدد الجوانب .. فهو ليس موضوعاً جهادياً أو عسكرياً وحسب ؛ وإنما هو ذو صلة بالتاريخ السياسي والحضاري . وعليه ؛ فإن القراءة التاريخية لمثل هذا الموضوع لا تقف عند مستوى واحد ، بل تتجاوزه إلى مستويات متنوعة ، بحيث يُمكن التطرق فيها إلى مناقشة دور (الدولة) و (المجتمع) في فك المأسورين ، والوسائل المستخدمة لهذا الغرض ، وكذلك محاولة الاقتراب من تصوير أوضاع المأسورين في دار الحرب ، ونوعية الأعمال المفروضة عليهم ، ومن ثم نقل الصورة إلى مشهد آخر في دار الإسلام ، لتسليط الضوء على الانعكاسات الاجتماعية المترتبة على غياب الأسرى عن

ذويهم وممتلكاتهم ، وما نجم عنها من مشكلات اجتماعية ، وما أثارته من جدل فقهي عميق ؛ فضلاً عما أحدثته من تأثيرات حضارية متبادلة بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية .

الأندلس ثغر دار الإسلام :

وصف لسان الدين بن الخطيب[1] (ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) بلاد الأندلس بأنها: "ملاعب الجياد للجهاد" ، وذلك في رسالة كتبها في تفضيل الجهاد على الحج . وعلى الرغم من الإيجاز الشديد في هذا الوصف ؛ إلا أنه دقيق المعنى ويحمل بين طياته مدلولات كثيرة ، تُعبر عن واقع التجربة الأندلسية الغنية بجوانبها السياسية والحضارية .

إن طبيعة الموقع الجغرافي (النائي) لبلاد الأندلس ، ومجاورتها للدويلات النصرانية في شمال شبه الجزيرة الإيبيرية ؛ قد فرض عليها أن تكون ثغراً لدار الإسلام ، ورباطاً يقصده المتطوعون للجهاد ، سواء أكانوا من الأندلس أو من العدوة المغربية ، أو من غيرهما من الأقطار الإسلامية . فترى كثيراً من الأحداث التاريخية في الأندلس قد امتزجت بالأعمال الحربية والجهادية التي حمل لواءها مسلمو الأندلس ، وذلك منذ الفتح الإسلامي سنة (٩٢هـ / ٧١٠م) ، مروراً بما يُسمى حرب الاسترداد *Reconquista* التي شنتها الدويلات النصرانية ، وما تطلبته هذه الحرب من قيام المسلمين بواجب الدفاع عن أراضيهم ، وإلى آخر يوم في حياة مملكة غرناطة الإسلامية . ولذا فقد ترددت الحملات العسكرية على جانبي الحدود بين الأندلس وجيرانها الشماليين، وتخلّل هذه الحملات المتوالية فتراتٌ ساد

(١) المقري ، أبو العباس أحمد بن محمد . **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**؛ تحقيق إحسان عباس ·- بيروت : دار صادر ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ، ج ١ ، ص١٨٦ .

فيها الأمن والهدوء بين الطرفين حيناً من الوقت . فكانت فترات السلم هذه تخلق مناخاً ملائماً لتعبئة القوى العسكرية وحشد الطاقات البشرية وترميم أسوار المدن في المناطق الثغرية. وربما تخللها أيضاً مكاتبات مستمرة بين الطرفين ووفادات متبادلة . كان من بين أهدافها افتكاك أسرى الحرب لدى كل من الجانبين.

فما مدى نجاح المسلمين في الأندلس في افتكاك أسراهم من دار الحرب ؟ وما الوسائل التي استعملوها لتحقيق هذا الغرض النبيل ؟ .

تفيد المصادر التاريخية بأن مسلمي الأندلس في الحقبة موضوع البحث قد أبدوا اهتماماً كبيراً بمشكلة المأسورين في دار الحرب ، فاجتهدوا في تخليصهم من الأسر وإنهاء معاناتهم بمختلف الوسائل المتاحة التي تتناسب وحالتهم السياسية والعسكرية ، وما فيها من قوة أو ضعف . فمن هذه الوسائل : تجريد حملات الصوائف لمناطق الثغور ، والتهديد بإعلان الحرب ، والمبادلة ، والشفاعة ، والفدية والمهاداة. ومن المهم هنا التأكيد على أن هذه الوسائل كانت موزعة ما بين الجهود الرسمية والشعبية الرامية إلى تحقيق هذه الغاية .

فعلى المستوى الرسمي : نلاحظ أن الدولة الأموية بذلت جهوداً ملموسة في هذا المجال . فقد أشاد ابن عبد ربه[1] في هذا الصدد بعناية الأمير هشام (الرضا) ابن عبد الرحمن (١٧٢ - ١٨٠هـ / ٧٨٨ - ٧٩٦م) في حراسة الثغور الإسلامية واستنقاذ أهل السبي . وتبعه ابن حزم[2] في تأكيد هذه المنقبة لهشام (الرضا) ،

---

(١) ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد . **العقد الفريد** ؛ تحقيق محمد سعيد العريان ، (د . م : دار الفكر ، د . ت) ، ج ٥ ، ص ٢١٦ .

(٢) ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد ، **جمهرة أنساب العرب** ؛ تحقيق عبد السلام هارون ، - ط ٥ - القاهرة : دار المعارف ، (د . ت)

فأثنى على الأمير الأموي لكونه "يحضر الجنائز ويعود المرضى ويفك الأسرى ويتحرى الحق". ووصل الأمر في عهد ابنه الحكم (الربضي) (١٨٠- ٢٠٦هـ/ ٧٩٦ - ٨٢١م) أن خرج الأمير الحكم بنفسه على رأس حملة عسكرية لإنقاذ امرأة مسلمة ، بلغته استغاثتها عندما وقعت في أسر العدو، فقالت: "واغوثاه بك يا حكم ، فلقد غفلت عنا حتى تركتنا نهباً للعدو"[١] .

ونهج الحكم الربضي نهجاً آخر في فك الأسرى المسلمين ، فعند قفوله من حملاته العسكرية ؛ كان يجلب معه عدداً من أسرى العدو ، فيوزعهم على ذوي الأسرى المسلمين ليبادلوهم بذويهم المأسورين في دار الحرب[٢].

وظلت السياسة الأموية في عصر الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦- ٢٣٨هـ/ ٨٢١ - ٨٥٢م) مواظبة على توجيه حملات الصوائف نحو الشمال، بهدف تخريب حصون العدو، واستنقاذ من بأيديهم من أسرى المسلمين، مثلما حدث في الحملة التي قادها الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد[٣] سنة (٢٠٨هـ / ٨٢٣م) إلى ألبة والقلاع[٤].

---

(١) مجهول المؤلف . **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها بينهم** ؛ تحقيق إبراهيم الأبياري ،- ط ١ ،- القاهرة - بيروت : دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م) ص ١١٧ .

(٢) ابن حيان ، أبو مروان حيان بن خلف . **المقتبس** ؛ تحقيق محمود علي مكي ،- ط ١،- الرياض : مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م ، السفر الثاني ، ص ٢٣٢ .

(٣) عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث الرومي . ولاّه الأمير هشام بن عبد الرحمن كورة جيان ، ثم استوزره الأمير الحكم بن هشام وولاّه الحجابة واستعمله على قيادة الجيوش ؛ انظر : ابن الأبار ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي . **الحلة السيراء** ،- ط ١ ،- القاهرة : الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦٣م ، ج ١ ، ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٤) ألبة *(Alava)* : تقع على الضفة اليمنى شمالي نهر إبره ، وأما القلاع فهي المنطقة المعروفة بقشتالة القديمة *(Castilla ja Vieja)* سماها العرب بذلك لكثرة قلاعها .

ولقد جرى تطور ملحوظ فيما يتعلق بالجهود الرسمية المبذولة لاستنقاذ الأسرى المسلمين من دار الحرب ، وذلك في النصف الأخير من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، فقد بادر الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣-٢٧٥هـ/ ٨٨٦ - ٨٨٨م) إلى تهيئة موضع من جامع قرطبة ، تحفظ فيه أموال الأوقاف المخصصة للأسرى ، وهذا ما يفهم من رواية ابن عذاري[١] ، إذ قال : "... ثم زاد الأمير المنذر ابن محمد البيت المعروف ببيت المال في الجامع ، فوضع فيه الأموال الموقفة لغياب المسلمين .." . ويمكن اعتبار هذه الخطوة بمثابة نقطة التقاء بين الجهود الرسمية والشعبية التي بذلها مسلمو الأندلس لافتكاك أسراهم . فقد جذبت أنظار الناس إلى مشكلة الأسرى ، وساهمت في حث الأغنياء والموسرين على الإنفاق في هذا الوجه . وبمضي الوقت تبلور هذا المفهوم في ذهنية المجتمع الأندلسي ، فصارت "أحباس الأسرى" تقوم بدور بارز في خدمة قضايا المأسورين[٢] .

ومع ذلك كله ؛ فإن هذا التطور الذي جرى في عصر الأمير المنذر ، إنما يسجل تراجعاً في مستوى الجهود الرسمية لافتكاك الأسرى . فالدولة لم تعد قادرة على حماية أطرافها الشمالية وتأكيد هيمنتها على تلك المناطق ، فضلاً عن إرسال البعوث العسكرية من أجل إغاثة امرأة مأسورة - كما حدث من قبل في عهد الأمير الحكم - . فالاضطرابات الداخلية اشتعلت في معظم أنحاء البلاد خلال النصف الأخير من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي . فلم يكن بدٌ أمام الإمارة الأموية ، وهي تجتاز هذه الظروف الصعبة ، سوى التخلي - ولو جزئياً - عن مهمة

(١) ابن عذاري ، أبو عبد الله أحمد بن محمد . **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** ؛ تحقيق جورج كولان وليفي بروفنسال - بيروت : دار الثقافة ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

(٢) الونشريسي ، أحمد بن يحيى . **المعيار المعرب والجامع المغرب لفتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب** - بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ج ٧ ، ص ٣٣٣ .

فك الأسرى المسلمين، ومن ثم السعي إلى ملء الفراغ الناتج عن هذا الإجراء ، من خلال توسيع دائرة المشاركة الشعبية في هذا الواجب العظيم .

على أن هذا الوضع الجديد قد أدى أيضاً إلى رواج المتاجرة بفك الأسرى ، فقد يأتي أحد التجار إلى الأسير ويتفق معه على افتكاكه مقابل أن يدفع الأسير لمن افتداه مبلغاً مالياً يفوق قيمة الفدية . وقد انتشر مثل هذا اللون من المتاجرة في النصف الأخير من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، وضرب فيه اليهود بسهم موفور[1]. ومن هنا يمكن القول: إن الوسائل المتبعة لافتكاك الأسرى تختلف حسب قوة الدولة وضعفها ، فمتى كانت الدولة قوية ؛ فإن الخيار العسكري يطغى على ما سواه ؛ وإلا فإن هذا الخيار يتراجع كثيراً في حال الضعف والوهن ، ويتم اللجوء عوضاً عنه إلى (المفاداة أو الفدية) .

وتنسحب هذه المقولة على القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي الذي برزت فيه الخلافة الأموية قوة سياسية وعسكرية في قاصية الغرب الإسلامي . فالمستفاد من الروايات التاريخية أن عدد الأسرى المسلمين في دار الحرب ، انخفض بشكل كبير، حتى أن الخليفة الناصر لدين الله (٣٠٠ -٣٥٠هـ / ٩١٢-٩٦١م) عندما توفيت إحدى محظياته ، وتركت مالاً كثيراً "أمر أن يفك بذلك المال أسرى المسلمين، وطلب في بلاد الإفرنج أسيراً فلم يوجد ، فشكر الله تعالى على ذلك ..."[2] .

ولم يختلف النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي عن نصفه الأول ، إذ انعكس التفوق السياسي والعسكري للدولة الأموية على أوضاع

---

(١) ابن حيان ، أبو مروان حيان بن خلف . **المقتبس في تاريخ الأندلس** ؛ تحقيق إسماعيل العربي٠- ط ١ ٠- المغرب : دار الآفاق الجديدة ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م ، القسم الثالث ، ص٤٣.

(٢) المقري ، **نفح** ، ج ١ ، ص٥٢٣ .

الأسرى المسلمين في دار الحرب . فتناقصت أعدادهم كثيراً ، وذلك نتيجة للحملات المتوالية التي شنها المنصور بن أبي عامر (ت ٣٩٢هـ / ١٠٠٢م) ، والتي بلغت أكثر من خمسين حملة عسكرية موزعة على الدويلات المجاورة في الشمال[١] . فقد منح المنصور قسطاً من عنايته لموضوع فك الأسرى، فكان ينهض بنفسه على رأس الجيش بحثاً عن الأسرى المسلمين في دار الحرب[٢]. كما أنه جعل من افتكاك الأسرى شرطاً مهماً من شروط إمضاء الصلح مع ملوك النصارى، مثلما فعل مع غرسية بن شانجه *(Garcia Sancho)* ملك نافار ، حينما وفد إلى قرطبة ملتمساً الصلح ؛ فعندئذ أخذ عليه المنصور العهد والميثاق بإطلاق جميع الأسرى المسلمين[٣].

لكن المنصور لم يتردد لحظة واحدة في إلغاء اتفاق الصلح بين الطرفين، حين بلغه أن امرأة مسلمة لاتزال مأسورة في مملكة نافار، مما اعتبره إخلالاً بشروط الاتفاق ونقضاً للعهد والميثاق ، فخرج على رأس حملة عسكرية لبلاد البشكنس، معللاً سبب خروجه هذا بقوله : "... قد كان عاهدني ألا يبقى بأرضه مأسورة ولا مأسور، ولو حملته في حواصلها النسور، وقد بلغني بعدُ مقام فلانة المسلمة بتلك الكنيسة . والله لا أنتهي عن أرضه حتى أكتسحها"[٤] .

---

(١) محمد عبد الله عنان . **دولة الإسلام في الأندلس - الخلافة الأموية والدولة العامرية** ٠- القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، القسم الثاني - العصر الأول ، ص ٥٧١ .

(٢) المقري ، **نفح** ، ج ١ ، ص٥٩٧ .

(٣) ابن الخطيب ، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله . **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام - أو تاريخ إسبانيا الإسلامية** - ؛ تحقيق ليفي بروفنسال ٠- ط٢٠- بيروت : دار المكشوف ، ١٩٥٦م ، القسم الثاني ، ص ٦٨ .

(٤) الفتح بن خاقان . **مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس** ؛ تحقيق محمد علي شوابكه ٠- ط ٠١- بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص٣٩١ - ٣٩٢ ؛ ابن عذاري ، البيان ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ - ٢٩٨ .

على أن هناك ثمة فرقاً بين أسلوب الخليفة الناصر في فك الأسرى المسلمين، والأسلوب الذي اتبعه المنصور بن أبي عامر في هذا الشأن . ففي حين لجأ الأخير إلى الحل العسكري ، أو التلويح باستخدام القوة العسكرية على أقل تقدير ؛ فإن الخليفة الناصر قد استعمل الدبلوماسية لمعالجة الأمر، فاستفاد من حالة الهدوء والتفاهم التي سادت حيناً بينه وبين ملوك ليون ونافار في تخليص الأسرى المسلمين، إذ لاتذكر المصادر التي بين أيدينا أن الخليفة الناصر جرد حملة عسكرية لهذا الغرض.

ولا غضاضة عليه في ذلك ؛ فالرجل أنفق شطراً من سنوات حكمه في استنزال الثوار من معاقلهم ، وإعادة ترتيب البيت الأندلسي في الداخل ، ولم يكد يفرغ من ذلك حتى لاح الخطر الفاطمي في وجهه[1] . ثم إنه لم يكن موفقاً تماماً في غزواته ضد النصارى الشماليين ، فقد نُكب جيشه في حملته ضد مملكة ليون سنة (٣٢٧ هـ / ٩٣٨م) والمسماة معركة الخندق *(Alhandega)*، عند أسوار مدينة شنت منكش *(Simancas)*، ولم ينج من المعركة إلا بصعوبة بالغة[2] .

ولم يكن الأمر كذلك في عهد المنصور بن أبي عامر ، الذي استبد بزمام الأمور في الأندلس دون أن يواجه مثل تلك التحديات الخارجية التي واجهت الخليفة الناصر .

ويظهر أن الخليفة الحكم المستنصر بالله (٣٥٠ - ٣٦٦هـ / ٩٦١ - ٩٧٦م) جرى على سنن والده في فك الأسرى المسلمين من دار الحرب، مستفيداً من

(١) أحمد بدر . **تاريخ الأندلس في القرن الرابع الهجري - عصر الخلافة** .-دمشق: مطابع ألف باء ، ١٩٧٤م ، ص٨٦ .

(٢) ابن حيان ، أبو مروان حيان بن خلف . **المقتبس** ؛ نشره بيدرو شالميتا وزميلاه.- مدريد - الرباط: المعهد الإسباني العربي للثقافة وكلية الآداب بالرباط ، ١٩٧٩م، ص٤٣٥.

علاقاته السياسية المتينة مع حكام وملوك الدويلات النصرانية المجاورة . ففي عام (٣٦٠هـ/ ٩٧١م) وصل إلى قرطبة وفدٌ من إمارة برشلونة، جاء ملتمساً عقد معاهدة سلم وصداقة مع الأندلس ، وقد بعث حاكم برشلونة مع الوفد هدايا كثيرة . ومن بينها: "ثلاثون أسيراً من أسارى المسلمين، جمعهم في قاعدته وأطراف عمله من ذكر وأنثى ، إذ أُعلم أن ذلك أفضل ما يُسر به أمير المؤمنين ويبتهج به ويكافئ عليه"(١).

ويتضح مما تقدم أن (المهاداة) كانت من ضمن وسائل افتكاك الأسرى المسلمين، وكان يتم تفعيل هذه الوسيلة في أوقات السلم والسكون بين مسلمي الأندلس وجيرانهم من نصارى الشمال .

غير أنه من المحقق أن حالات السلم والصداقة بين الجانبين كانت ظرفية ، فلم تدم طويلاً . ثم إن الدولة الأموية مرّت بأطوار متعاقبة من القوة والضعف خلال وجودها التاريخي في الأندلس ، فلم يكن في استطاعتها الاستمرار في فك الأسرى المسلمين من دار الحرب ، ولذا فقد حرصت الدولة على استثمار حماسة الناس تجاه القضية، وتوجيهها بما يخدم مشكلة الأسرى . وساعدها على ذلك ، أن المذهب المالكي - وهو السائد في الأندلس - شدّد كثيراً على المسئولية المشتركة لعموم المسلمين في فك أسراهم . فقد أفتى الإمام مالك بن أنس (١٧٩هـ / ٧٩٥م) بأن يتحمل كافة المسلمين فداء أسراهم ، حتى لو ذهبت أموالهم في هذا الوجه(٢).

وهكذا بادر نفرٌ من المحسنين والأثرياء إلى افتكاك الأسرى من دار الحرب

---

(١) ابن حيان ، أبو مروان حيان بن خلف . **المقتبس في أخبار بلد الأندلس** ؛ تحقيق عبد الرحمن الحجي ·- بيروت : دار الثقافة ، (د . ت) ، ص ٢٠ - ٢١ .

(٢) ابن العربي ، أبو بكر محمد بن عبد الله . **أحكام القرآن** ؛ تحقيق علي محمد البجاوي ·- بيروت : دار الجيل ، (د.ت) ، ج ١ ، ص٦٠ .

باعتباره عملاً من أعمال البر والإحسان ، امتثالاً لقوله تعالى : "فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة"(١).

ولقد نصّت مصادرنا على أسماء بعض الأجواد المنفقين في هذا الجانب ، أمثال يوسف بن مؤذن بن عيشون المعافري الوشقي(٢) (٣٠٩هـ / ٩٢١م) ، الذي استطاع أن يفك نحو مئة أسير من ماله الخاص ، حتى أثنى عليه (الخشني) قائلاً : "لم يتقدمه أحدٌ في بلده إلى مثل فعله في ذلك"(٣).

ولابد أن يوسف بن مؤذن كان من أهل الثراء واليسار، بحيث استفاد من ثروته في افتكاك حوالي (١٠٠) أسير، وهذه الأرقام في أعداد الأسرى ليست هينة، ويتطلب افتكاكهم مبالغ طائلة . ولنا أن نتصور ثمن الفدية المقررة على الأسير الواحد إذا أخذنا بما أورده (ابن الفرضي) في ترجمة (عمر بن يوسف الأموي - ت:

---

(١) سورة البلد ، الآيتان : ١٣ - ١٤ .

(٢) أبو عمر يوسف بن مؤذن المعافري. اعتنى بطلب العلم ، فسمع بالأندلس من ابن وضاح ، ورحل إلى القيروان فسمع بها من يحيى بن عمر ، وبمصر من محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، وبمكة من علي بن عبد العزيز وابن الصائغ؛ انظر: ابن الفرضي ، أبو الوليد عبد الله ابن محمد . **تاريخ علماء الأندلس** ؛ تحقيق إبراهيم الأبياري ٠- ط ١ ٠- بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ج ٢ ، ص٩٣٦ .

(٣) الخشني ، محمد بن الحارث . **أخبار الفقهاء والمحدثين** ؛ تحقيق ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا ٠- مدريد : معهد التعاون مع العالم العربي ، ١٩٩٢م ، ص ٣٨٢ . ويبدو أن ابن الفرضي لم يكن دقيقاً حينما أشار إلى أن (أحمد بن يوسف بن مؤذن الوشقي) قد فك من أسرى المسلمين في أرض العدو مئة وخمسين سبية ، معتمداً في ذلك على ما أورده الخشني في كتابه . فأخطأ ابن الفرضي هنا مرتين ؛ الأولى في اسم الشخص المقصود ، إذ جعله (أحمد بن يوسف بن مؤذن) والصواب (يوسف بن مؤذن) . والثانية في ضبط أرقام الأسرى الذين جرى افتكاكهم ، فاحتسبهم مئة وخمسين بينما لا تتجاوز أعدادهم المئة أسير ؛ انظر : ابن الفرضي . **تاريخ** ، ج ١ ، ص٦٨ .

٣٣٧هـ / ٩٤٨ م)[١] الذي وقع في الأسر هو وابنه وأخوه ، فافتدوا أنفسهم جميعا بخمسة عشر ألف دينار[٢]، أي بواقع خمسة آلاف دينار للأسير الواحد . غير أن المبلغ المقرر للفدية يتفاوت حسب المكانة الاجتماعية للأسير : فعمر بن يوسف كان من أعلام بلده ، فضلاً عن كونه ينتمي إلى الأسرة الأموية، ولذا فقد اشترط العدو لإطلاق سراحه مبلغاً يتناسب ومكانته الاجتماعية . ومما يعزز هذا الرأي ، أن الوزير هاشم بن عبد العزيز[٣] حينما وقع في الأسر افتدي بمبلغ عظيم ، وصل إلى مئة وخمسين ألف دينار[٤]. ولاشك أن أبناء هاشم وأسرته كانوا عاجزين عن أداء هذا المبلغ ، لولا دعم الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ - ٢٧٣هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦م) لأسرة هاشم ، لكون الأخير من وزرائه المقربين ، وهذا ما دعاه إلى تأمين مبلغ الفدية المطلوبة[٥].

ونسجل هنا ملحوظتين ؛ أولاهما : أن يوسف بن مؤذن من أهالي مدينة

---

(١) أبو حفص عمر بن يوسف بن موسى بن فهد بن خصيب الأموي . من أهل تطيلة . درس الفقه، وولي قضاء تطيلة إلى أن مات : ابن الفرضي . **تاريخ** ، ج ٢، ص ٥٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٤٦ . وإجمالاً فإن مبلغ الفدية المقررة على الأسير الواحد يتراوح من المئة دينار فما فوق ؛ الونشريسي . **المعيار** ، ج ٢ ، ص١١٧.

(٣) الوزير أبو خالد هاشم بن عبد العزيز . من ذرية عبد الله بن خالد كبير النقباء في دولة عبد الرحمن الداخل . استعمله الأمير محمد في عدة مناصب حتى اعتلى الوزارة ، وأصبح من أقرب موظفي الدولة منزلة عند الأمير محمد : انظر : ابن حيان ، **المقتبس** ؛ تحقيق محمود علي مكي ، ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٤) ابن القوطية ، أبو بكر محمد بن عمر . **تاريخ افتتاح الأندلس** ؛ تحقيق عبد الله أنيس الطباع - بيروت : دار النشر للجامعيين ، ١٩٥٧م ، ص١٢٤ .

(٥) ابن حيان . **المقتبس** ؛ تحقيق محمود علي مكي ، ص٣٨٦ .

(وشقة)[1]، وهي تقع في منطقة الثغر الأعلى الأندلسي، المتاخمة لأراضي أراغون . *(Aragon)* وهذا ما أتاح له أن يقف عن كثب على أوضاع الأسرى المسلمين ، وأن يتعرف على أعدادهم .

والملحوظة الثانية هي : أن النشاط الذي قام به يوسف بن مؤذن في فك الأسرى قد تم في النصف الأخير من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، وهي المدة التي شهدت فيها الإمارة الأموية انتكاسة خطيرة بفعل الثورات الداخلية التي اندلعت في معظم أنحاء الأندلس ، وهذا ما يعزز الرأي الذي أشرنا إليه من قبل عن مضاعفة الجهود الشعبية في فك الأسرى حينما يهتز الاستقرار السياسي للدولة[2]. ولذا فليس من المستغرب أن يظهر في المدة ذاتها آخرون من الأجواد المنفقين الذين اهتموا بمشكلة الأسرى . فمن هؤلاء المحسنين ؛ الفقيه عبيد الله بن يحيى بن يحيى الليثي[3] (ت : ٢٩٨هـ / ٩١٠م) ، فقد اشتغل الرجل بالتجارة قبل طلبه العلم[4]، وكوّن ثروة مالية طيبة ، أنفق قسماً منها في فك الأسرى المسلمين ، إذ كان "كثير الفداء من دار الحرب"[5]، ولذا كانت وفاته خسارة كبيرة لأهالي الثغور

---

(١) وشقة *(Huesca)* : تقع على مسافة خمسين ميلاً شرق سرقسطة ، وتمتاز بكثرة بساتينها وتعدد أسواقها ؛ انظر : ابن عبد المنعم الحميري ، محمد ، **الروض المعطار في خبر الأقطار** ؛ تحقيق إحسان عباس ٠- ط ٢ ٠- بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٨٤م ، ص ٦١٢ .

(٢) انظر أعلاه ، ص ٦ .

(٣) أبو مروان، عبيد الله بن يحيى بن يحيى الليثي . روى عن أبيه علمه ، ولم يسمع بالأندلس من غيره ، ثم رحل حاجاً وتاجراً . كان عاقلاً كريماً ، عظيم المال والجاه ؛ ابن الفرضي . **تاريخ** ، ج ١ ، ص ٤٢٩ .

(٤) الخشني . **أخبار** ، ص ٢٣٠ .

(٥) مجهول المؤلف . **طبقات المالكية** ، مخطوط (ميكرو فيلم) ، الرباط ، الخزانة العامة ، رقم (د ٣٩٢٨) ، ورقة ٦٦ .

وذوي المأسورين وغيرهم من الضعفاء والمساكين ، وقد عبر عن ذلك شاعر العصر (ابن عبد ربه) بقوله[١]:

لقد فُجع الإسلام منه بناظر كما فجع الأيتام منه بوالد

بكته اليتامى والأيامى واعولت عليه الأسارى خالياً في الموالد

ومنهم ؛ منذر بن حزم[٢]، فقد "كانت تنفذ كتبه في السبي بأرض الحرب بفضل جاهه"[٣].

ويبدو أن موضوع الأسرى اكتسب بعداً آخر من الأهمية في تفكير الناس، فلم يقتصر هذا العمل النبيل على فئة مخصوصة من الأثرياء المحسنين؛ وإنما امتد إلى من هم أقل ثراءً .. فصار (فك الأسرى) من الموضوعات المدرجة في وصايا الناس[٤] وفي أوقافهم، فقد أوصى أحدهم بثلث تركته في فداء الأسرى[٥]، ونزع آخر إلى حبس بستانه على الأسرى والنظر في افتكاكهم[٦]. ومع هذا فإن أهالي الأسرى لم يركنوا إلى ما تقوم به الدولة أو ما يمارسه المحسنون في هذا السبيل، وإنما قاموا بواجبهم المفترض نحو ذويهم المأسورين، فبذلوا كرائم أموالهم، واضطروا إلى بيع ممتلكاتهم

---

(١) المصدر نفسه ، ورقة ٦٨ .

(٢) منذر بن حزم . من أهل بطليوس، وتقلد فيها ولاية القضاء؛ الخشني. **أخبار**، ص١٩٥ - ١٩٦.

(٣) المصدر نفسه ، ص١٩٦ .

(٤) **أخبار مجموعة** ، ص١٠٩ .

(٥) الونشريسي . **المعيار** ، ج ٩ ، ص٢٥٦ .

(٦) ابن سهل ، أبو الأصبغ عيسى بن سهل . **ديوان الأحكام الكبرى** ؛ تحقيق رشيد النعيمي ٠- ط١ ٠- الرياض : شركة الصفحات الذهبية المحدودة ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م) ، ج ٢ ، ص١١١٧. الونشريسي . **المعيار** . ج ٧ ، ص ٤٣٨ .

الخاصة، فمنهم من باع فرسه ليستفيد من ثمنه في فكاك ابنه المأسور[1]، ومنهن من عرضت دارها للبيع من أجل ابنها الأسير[2]. ثم لم يكتف أولئك ببذل الأسباب المادية لإنهاء محنة ذويهم؛ وإنما تضرعوا إلى الله بالدعاء لكشف الضر عنهم، وفزعوا إلى الفقهاء والصلحاء ملتمسين بركة دعائهم . فقد جاءت امرأة إلى الفقيه بقي بن مخلد[3] (ت : ٢٧٦هـ / ٨٨٩م) تشكو إليه قلة حيلتها في افتكاك ابنها من الأسر[4]. وشهد مجلس الفقيه إبراهيم بن باز[5] (ت : ٢٧٤هـ / ٨٨٧م) حالة مماثلة[6].

وهناك لونٌ من ألوان الافتكاك ، يتم بموجبه التفاهم بين الأسير المسلم وآسره النصراني ، فيقوم الأخير بإطلاق سراح الأول ، فينطلق إلى بلده ليجمع الفدية المقررة عليه ، ثم يرسلها إلى صاحبه . وقد جرى مثل ذلك لمحمد بن عبد الله بن

---

(١) الضبي ، أحمد بن يحيى . **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس** ؛ تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي ٠- ط ٠١- بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م) ، ص ٢٩٢ .

(٢) المقري . **نفح** ، ج ٢ ، ص ٥١٩ .

(٣) أبو عبد الرحمن، بقي بن مخلد ، من أهل قرطبة . رحل إلى المشرق مرتين . اهتم بدراسة الحديث بشكل خاص مما أثار عليه حنق فقهاء المالكية بالأندلس ؛ انظر : الخشني . **أخبار** ، ص ٤٩ - ٦٢ .

(٤) الحميدي ، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر . **جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس** ؛ تحقيق إبراهيم الأبياري ، ط ١ ، (القاهرة - بيروت : دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ، ج ١ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ . ابن بشكوال ، أبو القاسم خلف بن عبد الملك. **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم**؛ نشره عزت العطار الحسيني ٠- ط٢ ٠- القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ج١، ص١٢٠.

(٥) أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن باز ، ويعرف بابن القزاز . من أهل قرطبة . كان فقيهاً عالماً زاهداً ؛ انظر : ابن الفرضي . **تاريخ** ، ج ١ ، ص٣٧ .

(٦) ابن عاصم الغرناطي ، أبو يحيى محمد . **جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى** ؛ تحقيق صلاح جرار ٠- عمان : دار البشير للنشر والتوزيع، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م ، ج٢، ص ٢٢٦ - ٢٢٨.

عيشون[1] (ت : ٣٤١هـ / ٩٥٢م) الذي عاد إلى بلده طليطلة[2] بعد انطلاقه من الأسر ، لكنه حين عرض أمره على أهلها ، لم يجتمع له مبلغ الفدية المتفق عليها . فعزم على الرجوع إلى آسره النصراني وفاءً بعهده ، لولا تدخل بعض المحسنين[3]. وقد يحدث في بعض الأحيان أن يطلب من الأسير الانطلاق إلى بلده لبيع ممتلكاته وتأمين مبلغ الفدية ، مقابل ارتهان أحد أبنائه أو ذويه[4] .

ونستشف من ذلك أن صنفاً من الأسرى عمل على تخليص نفسه بنفسه ، بعد أن فقد الأمل في معونة سلطان ، أو شفقة محسن ، أو نجدة قريب . وقد فطن الفقهاء إلى هذا الأمر ، فأفتى أحدهم بجواز إرسال زكاة المال إلى الأسرى المسلمين في دار الحرب[5]. ونبّه آخرون إلى ضرورة الاهتمام "بفداء من لاطالب له"[6]، بعد أن طالت مدة أسرهم بسبب فقدان الطالبين عنهم .

وربما نجح بعض المأسورين في افتكاك أنفسهم دون فدية أو مبادلة ، وإنما

---

(١) أبو عبد الله محمد بن عيشون ، من أهل طليطلة. كان فقيهاً عالماً بالفتيا على المذهب المالكي؛ انظر : عياض ، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي . **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك** ؛ تحقيق أحمد بكير محمود ٠- بيروت - طرابلس : دار مكتبة الحياة ودار مكتبة الفكر ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م ، المجلد الثاني ، ص ٤٥٨ - ٤٥٩ .

(٢) طليطلة *(Toledo)* : قاعدة الثغر الأوسط . تقع في منعطف نهر تاجو على بعد ٧٥ كلم من مدريد . وهي اليوم مدينة متواضعة لاتزال تحتفظ بخططها القديمة؛ انظر : ياقوت ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي. **معجم البلدان** ٠- بيروت: دار صادر ، د . ت) ، ج٤، ص٣٩-٤٠؛ محمد عبد الله عنان . **الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال** ٠- ط ٢ ٠- القاهرة : مؤسسة الخانجي ، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م) ، ص ٨٠ - ٨٢ .

(٣) عياض . **ترتيب المدارك** ، المجلد الثاني ، ص ٤٥٩ .

(٤) الونشريسي . **المعيار** ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

(٥) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٩٧ .

(٦) ابن سهل . **ديوان الأحكام** ، ج ١ ، ص ٢٩٨ .

بالفرار، مثلما حدث لمطرف بن موسى بن ذي النون[1] (٣٣٣هـ/ ٩٤٤م)، إذ كان مأسوراً في نافار، لكنه احتال حتى نجح في الفرار من محبسه في ثلاثة من أصحابه[2].

وسواءٌ أكان افتكاك الأسرى يتم بواسطة القوة العسكرية أو الفدية أو المبادلة أو المهاداة ، أو بأي وسيلة كانت ؛ فإن الإجراءات الخاصة بكيفية فك الأسرى - خلال المدة موضوع البحث - يلفها الغموض الشديد . فالمصادر التي بين أيدينا لم تفصح بما يكفي عما إذا كانت الدولة قد أسندت مهمة افتكاك الأسرى إلى جهة رسمية معلومة أو جهاز إداري محدد . صحيحٌ أن المصادر أشارت إلى "الفكاك" وأوضحت بجلاء أن مهمته تنحصر في فك الأسرى المسلمين من دار الحرب ، لكن هذه الإشارات متأخرة عن مدة البحث ، ويرجع بعضها إلى القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[3]. وليس لنا أن نستنتج - وفقاً لذلك - بأن منصب (الفكاك) كان موجوداً قبل تلك المدة ، غير أنه يسعنا القول : إن الدولة أوكلت مهمة افتكاك الأسرى إلى عمالها على الثغور ، وهذا ما يستفاد من رسالة بعثها الأمير عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨هـ / ٨٢١ - ٨٥٢م) إلى عامله على الثغر الأعلى، وقد أمره فيها : "أن يصرف جميع ما يقبضه بالثغر من الجزاء والعشور ،

(١) مطرف بن موسى بن ذي النون سليمان بن طويل بن الهيثم بن إسماعيل الهواري. كان أبوه موسى من رؤساء البربر في شنت برية ، وقد أعلن عصيانه فيها ، أيام الأمير عبد الله بن محمد ، ثم خلفه من بعده ابنه مطرف الذي اعتصم بحصن وبذة حتى استنزله الناصر لدين الله ؛ انظر : ابن حيان . **المقتبس** ، القسم الثالث ، ص ٣٦ ، ٣٨ .

(٢) المصدر نفسه ، القسم الثالث ، ص ٣٨ .

(٣) المقري ، **نفح** ، ج ٤ ، ص ١٥ - ١٦ ؛ **وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي** ؛ تحقيق لويس سيكو دي لوثينا ·- مدريد : معهد الدراسات الإسلامية ، ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م ، ص ١٠٠ .

بعد إقامة سائر النفقات الراتبة . إلى فكاك أسراهم وحمل مرجليهم ومرمة حصونهم ومصالح ثغورهم وكل ما فيه تقويتهم على عدوهم"[١]. وقد يبدو ذلك معقولاً بالنظر إلى موقعهم الجغرافي القريب من دار الحرب ، مما يتيح لهم الوقوف بصورة أفضل على أوضاع الأسرى .

أما فيما يتعلق بمدة الأسر : فإنها كانت تستغرق وقتاً طويلاً ، ربما يصل أحياناً إلى سبع سنوات[٢]. وقد تسبب ذلك في خلق مشكلات اجتماعية عديدة ، لعل من أبرزها ارتفاع حالات الطلاق ، إذ أفادت كتب النوازل أن عدداً من النساء حضرن إلى مجالس القضاء يطالبن بالأخذ بشرطهن في الغيبة ، وهو ما يعني فسخ النكاح[٣]. ذلك أن عمليات الأسر قد ألقت بظلالها على عقود الزواج في الأندلس ، فكان بعض النساء يشترطن ألا يغيب عنها الزوج أكثر من عام في الأندلس - كأن يقع مثلاً في الأسر - ، أو عامين في المشرق - في رحلة حج أو تجارة أو طلب علم أو ما شابه ذلك[٤] .

وقد أفضى هذا الأمر إلى جدل فقهي في الأندلس، ففي حين أفتى الفقيه ابن لبابة[٥] (ت : ٣١٤هـ / ٩٢٦م) بأن للمرأة أن تأخذ بشرط الغيبة، حتى "وإن كان

---

(١) ابن حيان . **المقتبس** : تحقيق محمود علي مكي ، ص ٦ .

(٢) الشعبي المالقي ، أبو المطرف عبد الرحمن بن قاسم . **الأحكام** : تحقيق الصادق الحلوي ٠- ط ١ ٠- بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ١٩٩٢م ، ص ٤٠٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص٤٠٢ .

(٤) ابن العطار ، محمد بن أحمد الأموي . **الوثائق والسجلات** : تحقيق بيدرو شالميتا وفيدريكو كورينطي ٠- مدريد : المعهد الإسباني العربي للثقافة ، ١٩٨٣م ، ص ٨ . الشعبي المالقي . **الأحكام** ، ص ٤٠٢ .

(٥) محمد بن عمر بن لبابة ، من أهل قرطبة . كان فقيهاً مشاوراً في أيام الأمير عبد الله بن محمد ؛ انظر : ابن الفرضي . **تاريخ** ، ج ٢ ، ص ٦٨٠ - ٦٨١ .

زوجها مأسوراً في دار الحرب"[١]، وتبعه في هذا أيضاً محمد بن عبد الملك بن أيمن[٢] (ت : ٣٣٠هـ / ٩٤١م) حينما أفتى لزوجات الجند المفقودين - ممن لايعرف حالهم إن كانوا قتلى أو مأسورين - بأن ينكحن غيرهم بعد عام واحد ، تتلوه مدة العدة[٣]؛ فقد نزع فريقٌ آخر من الفقهاء إلى إسقاط شرط الغيبة عن المأسورين ، لأن غيبتهم لم تكن بإرادتهم ، وإنما هم مكرهون عليها[٤]. وأدلى الفقيه ابن زرب[٥] (ت: ٣٨١هـ/ ٩٩١م) برأي مشابه، قال فيه: " لا أرى على المأسور غيبة توجب للمرأة الأخذ بشرطها "[٦]. لكنهم اتفقوا - فيما يبدو - على أن لزوجة الأسير الحق في طلب الطلاق، دون أن تأخذ أصلاً بشرط الغيبة، وذلك إن لم تجد ماتنفق به على نفسها[٧].

وعلى ما يظهر فإن المشكلة الاجتماعية ذاتها ، واجهت بعض الأسرى المسلمين في دار الحرب ، مثلما واجهت زوجاتهم في دار الإسلام . فقد حدثت نوازل تفيد بزواج أسير مسلم من أسيرة مسلمة[٨]، أو حتى من نصرانية حربية[٩]، ولقد أفتى

---

(١) الشعبي المالقي . **الأحكام** ، ص ٣٩٥ .

(٢) محمد بن عبد الملك بن أيمن بن فرج ، من أهل قرطبة . كان فقيهاً عالماً ، مشاوَراً في الأحكام. له كتاب في السنن ؛ انظر : ابن الفرضي. **تاريخ** ، ج ٢، ص ٧٠٤ - ٧٠٥ .

(٣) الشعبي المالقي . **الأحكام** ، ص ٤٣٩ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٤٠٢ .

(٥) محمد بن يبقى بن زرب . ولي القضاء في قرطبة أيام المنصور بن أبي عامر ، وكان متقدماً في علوم الفقه واللغة ؛ انظر : النباهي ، أبو الحسن علي بن عبد الله . **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا - أو تاريخ القضاة في الأندلس** -. بيروت: المكتب التجاري، (د . ت)، ص٧٧ - ٨١ .

(٦) الشعبي المالقي . **الأحكام** ، ص ٤٠٢ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ٣٩٥ ، ٤٠٢ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ٤٥٢ .

(٩) الونشريسي . **المعيار** ، ج ٣ ، ص ١٦٨ - ١٦٩ .

بعض الفقهاء في هذه النوازل بضرورة تجديد النكاح فور انطلاقهما إلى دار الإسلام ، مع ثبوت حق الإرث والنسب للأولاد[١].

وتثير حالات التزاوج بين الأسرى المسلمين في دار الحرب ، تساؤلات أخرى عن أوضاعهم العامة ، ونوعية الأعمال التي ما رسوها خلال مدة أسرهم . وقد أشار أحد الباحثين[٢] إلى أن الأسرى المسلمين كانوا يقومون ببعض الأعمال اليدوية، كالطبخ والخبز، وما يشابهها مما لا يتطلب جهداً بدنياً عنيفاً. وليس هذا بصحيح ؛ فقد نصّت مصادرنا على أن الأسرى المسلمين كانوا مكلفين بأعمال الخدمة في الصحراء كل يوم[٣]. وهذا يعني أنهم اشتغلوا بتكسير الحجارة ونقلها ، أو تسوية الأرض وتمهيدها ، أو ما يتصل بذلك من الأعمال الزراعية الشاقة[٤]. كما اشتغل الأسرى أيضاً بالرعي[٥]، واستقاء الماء[٦]، وتلكم ليست أعمال يدوية خفيفة ! .

ومن الحق أن نشير هنا إلى أن جميع الأسرى لم يكلفوا بمثل هذه الأعمال المضنية ، وإنما استثنيت منها فئات من ذوي المكانة الاجتماعية البارزة ، عوملوا بلطف واحترام . فالوزير هاشم بن عبد العزيز كان يحظى بمعاملة جيدة حينما وقع في أسر الفونسو ملك جليقية سنة (٢٦٣هـ / ٨٧٦م)، فكان الملك يصغي إلى حديثه ويكثر من مجالسته حتى في أوقات الأكل[٧] . فلم يشكو هاشم إلا من الغربة عن

(١) الشعبي المالقي . **الأحكام** ، ص ٤٥٢ .

(٢) هنري بيريس . **الشعر الأندلسي في عصر الطوائف** ؛ ترجمة الطاهر أحمد مكي ٠- ط ١ ٠- القاهرة : دار المعارف ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ص ٢١٩ .

(٣) الحميدي . **جذوة** ، ج ١ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٤) محمد عبد الله عنان . **دولة الإسلام - العصر الثاني : دول الطوائف** - ، ص٤٠٣ .

(٥) ابن عاصم . **جنة الرضا** ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

(٦) ابن العربي . **أحكام القرآن** ، ج ٤ ، ص ١٧٠٨ .

(٧) ابن حيان . **المقتبس** ؛ تحقيق محمود علي مكي ، ص٣٧٩ .

وطنه، أو ما عبّر عنها بـ "مفارقتي تجاوب الأذان ، وتبدلي من ذلك بصليل النواقيس والصلبان"[١].

واللافت للنظر ؛ أن ملك جليقية وأكابر دولته ، احتفوا بهاشم بن عبد العزيز أيما احتفاء ، حتى قال ابن حيان أن الفونسو "شمخت نفسه وتعاظم على النصرانية"[٢] حين وقع هاشم في أسره ، وذلك بسبب تقدم المستوى الحضاري للأندلس الإسلامية في ذلك العصر ، والذي كان يفوق كثيراً ما لدى إسبانيا النصرانية، ولاغرو ؛ فقد أبدى هاشم من اللباقة والذكاء وسعة الثقافة ورقة الطباع، ما جعل القوم ينظرون إليه بصفته ممثلاً لعالم آخر أسمى وأسبق في مضمار الحضارة ، وأرقى في الثقافة والعادات الاجتماعية .

ولا غرابة في ذلك ؛ فالأسر كان من بين قنوات الاتصال الحضاري المهمة بين مسلمي الأندلس وجيرانهم من النصارى الإسبان ، ومثلما كان للأسرى المسلمين أثرٌ محقق في الأوساط الاجتماعية التي ألقتهم فيها مصائرهم[٣] ؛ فإن المجتمع الإسلامي تأثر بدوره ببعض العادات الوافدة ، والتي اعتبرها الفقهاء ضرباً من البدع المحدثة .

وقد عبّر العزفي[٤] عن ذلك بوضوح ، فقال : "وأرى أنه ما جرّ على أهل

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٩٣٠ ؛ المقري . **نفح** ، ج ٣ ، ص ٣٧٣؛ ثم انظر نص الرسالة التي بعث بها هاشم من مكان أسره إلى أحد أصدقائه في قرطبة ، في الملحق.

(٢) ابن حيان . **المقتبس** ؛ تحقيق محمود علي مكي ، ص ٣٧٨ .

(٣) ليفي بروفنسال . **محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها** ؛ ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة- القاهرة : المطبعة الأميرية ، ١٩٥١م ، ص ٥٣ .

(٤) العزفي ، أبو العباس . الدر المنظم في مولد النبي المعظم ؛ نشره فرناندو دي لا جرانخا - مدريد - غرناطة : **مجلة الأندلس**، ١٩٦٩م ، العدد ٣٤، ص٢١.

الأندلس هذا ، إلا جوار النصارى دمّرهم الله من جيران ، ومخالطتهم لتجارهم ، ومكاشفتهم عند الكينونة في إسارهم .

وعليه : فإن موضوع الأسرى ليس من الموضوعات العسكرية المحضة ، وإنما هو ذو أبعاد حضارية مهمة .

الخاتمة :

تبين من الدراسة أن قضية الأسرى المسلمين في دار الحرب ، احتلت حيزاً مهماً من تفكير المجتمع الأندلسي ، فشُغل بها الفقهاء ، وحرصوا بدورهم على تنبيه قادة المجتمع وأبنائه إلى خطورتها ، والعمل على إنهاء هذه القضية وإيجاد الحلول المناسبة لما يتعلق بها من مشكلات .

واتضح من الدراسة أن الأندلسيين استعملوا وسائل متنوعة لافتكاك أسراهم من دار الحرب . ولوحظ أن هذه الوسائل تتناوب فيما بينها حسب قوة الدولة أو ضعفها ، وكذلك حسب نوعية العلاقات السياسية التي تربطها بجاراتها الشمالية من الممالك الإسبانية .

كما كشفت الدراسة عن حجم الجهود (الشعبية) لافتكاك الأسرى ، والتي طغت في بعض الأحيان على الجهود (الرسمية)، لاسيما في أوقات الفتن والاضطرابات الداخلية .

ولقد تناولت الدراسة أوضاع الأسرى المسلمين في دار الحرب ، فسلّطت الضوء على الأعمال الشاقة التي كلفوا بها، خلافاً لما يرد في بعض الكتابات الأوربية المعاصرة ، من أنه لم يطلب من هؤلاء الأسرى غير القيام بأعمال يدوية خفيفة ! .

وتطرقت الدراسة إلى المشكلات الاجتماعية الناجمة عن غياب الأسير عن

أهله وذويه وما يستتبع ذلك من تصدع لشمل أسرته ، ثم ناقشت الدور الذي قام به الأسرى في التأثير الحضاري المتبادل بين الجانبين الإسلامي والمسيحي في شبه الجزيرة الإيبيرية .

ملحق الدراسة

- مقتطفات من الرسالة التي بعث بها هاشم بن عبد العزيز من مكان أسره(*).

"... ما آسى - أكرمك الله - إلا على مفارقتي تجاوب الأذان ، وتبدلي من ذلك بصليل النواقيس والصلبان ، وأن تعاجلني منيتي فأصير موسوماً ببلدة كفر ، أخشى المصير منها إلى الحشر ، فيا لها حسرة فتّتت الكبد الحرّى ، وأحرقت جمرتها الأحشا .

وقد كفيتني - أبقاك الله - ما كنت أرغبه من الرغبة إليك في الحنو على من تخلفتهم ، والحفظ لمن فارقتهم ، والتسلية لمن فجعتهم بما قد أتيت من ذلك وأربيت على المنى منه ، فالله ولي مجازاتك ، ومحتمل مكافاتك ، لاشريك له .

إن حضر خروج رسول إلى ما قبلنا فلا تُخلني بفضلك من عظم المنة عليّ بكتابك، والصلة لي بعلم حالك ، فإن لي من الشوق إليه والتطلع له ضعف ما بفؤادي من لوعة الحزن التي أملّتني الحياة ، وحبَّبت إلي الوفاة ، إن شاء الله تعالى ..... ".

(*) انظر : ابن حيان ، **المقتبس** ؛ تحقيق محمود علي مكي ، ص ٣٩٠ .

المصادر والمراجع

أولا - المخطوطات :

- مجهول المؤلف . **طبقات المالكية** ، مخطوط (ميكرو فيلم) ٠- الرباط : الخزانة العامة ، رقم (د ٣٩٢٨) .

ثانياً - المصادر :

- ابن الأبار القضاعي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله . **الحلة السيراء** ٠- ط٠١- القاهرة : الشركة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٦٣م)
- ابن بشكوال ، أبو القاسم خلف بن عبد الملك . **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم** ؛ نشره عزت العطار الحسيني ٠- ط٠٢- القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) .
- ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد . **جمهرة أنساب العرب** ؛ تحقيق عبد السلام هارون ٠- ط ٥ ٠- القاهرة : دار المعارف ، (د . ت) .
- الحميدي ، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر . **جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس** ؛ تحقيق إبراهيم الأبياري ٠- ط ١ ٠- القاهرة ، بيروت : دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) .
- الحميري ، محمد بن عبد المنعم . **الروض المعطار في خبر الأقطار** ؛ تحقيق إحسان عباس ٠- ط ٢ ٠- بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٨٤م .
- ابن حيان ، أبو مروان حيان بن خلف . **المقتبس من أنباء أهل الأندلس** ؛ تحقيق محمود علي مكي ٠- بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .
- **المقتبس** ؛ تحقيق محمود علي مكي ٠- ط ١ ٠- الرياض : مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م ، السفر الثاني .

- **المقتبس في تاريخ الأندلس** : تحقيق إسماعيل العربي ٠- ط ١ ٠- المغرب : دار الآفاق الجديدة ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م .
- **المقتبس** ، نشره بيدرو شالميتا مع زميليه ٠- مدريد - الرباط : المعهد الإسباني العربي للثقافة وكلية الآداب ، ١٩٧٩م.
- **المقتبس في أخبار بلد الأندلس** ؛ تحقيق عبد الرحمن الحجي ٠- بيروت : دار الثقافة (د . ت) .
- الخشني ، محمد بن الحارث . **أخبار الفقهاء والمحدثين** ؛ تحقيق ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا ٠- مدريد : معهد التعاون مع العالم العربي ، ١٩٩٢م .
- ابن الخطيب ، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله . **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام - أو تاريخ إسبانية الإسلامية -** ؛ تحقيق ليفي بروفنسال ٠- ط ٢ ٠- بيروت : دار المكشوف ، ١٩٥٦م .
- ابن سهل ، أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي . **ديوان الأحكام الكبرى** ؛ تحقيق رشيد النعيمي ٠- ط ١ ٠- الرياض : شركة الصفحات الذهبية المحدودة ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .
- الشعبي المالقي ، أبو المطرف عبد الرحمن بن قاسم . **الأحكام** ؛ تحقيق الصادق الحلوي ٠- ط ١ ٠- بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ١٩٩٢م .
- الضبي ، أحمد بن يحيى . **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس** ؛ تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي ٠- ط ٠١- بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- ابن عاصم الغرناطي ، أبو يحيى محمد . **جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى** ؛ تحقيق صلاح جرار ٠- عمان : دار البشير للنشر والتوزيع ، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م .

- ابن عبد ربه . أحمد بن محمد . **العقد الفريد** : تحقيق محمد سعيد العريان. (د.م : دار الفكر ، د. ت) .

- ابن عذارى . أبو عبد الله أحمد بن محمد . **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** : تحقيق جورج كولان وليفي بروفنسال ٠- بيروت : دار الثقافة ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .

- ابن العربي ، أبو بكر محمد بن عبد الله . **أحكام القرآن** : تحقيق علي محمد البجاوي ٠- بيروت : دار الجيل ، (د.ت) .

- العزفي ، أبو العباس . **الدر المنظم في مولد النبي المعظم** : نشره فرناندو دي لاجرانخا ٠- مدريد - غرناطة : مجلة الأندلس ، ١٩٦٩م .

- ابن العطار ، محمد بن أحمد الأموي . **الوثائق والسجلات** : تحقيق بيدرو شالميتا وفيدريكو كورينطي ، (مدريد : المعهد الإسباني العربي للثقافة ، ١٩٨٣م) .

- عياض ، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي . **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك** : تحقيق أحمد بكير محمود ٠- بيروت - طرابلس : دار مكتبة الحياة ودار مكتبة الفكر ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

- الفتح بن خاقان . **مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس** ؛ تحقيق محمد علي شوابكه ٠- ط ١ ٠- بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

- ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد الأزدي. **تاريخ علماء الأندلس**؛ تحقيق إبراهيم الأبياري ٠- ط ١ ٠- بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

- ابن القوطية ، أبو بكر محمد بن عمر . **تاريخ افتتاح الأندلس** ؛ تحقيق عبد الله أنيس الطباع ٠- بيروت : دار النشر للجامعيين ، ١٩٥٧م .

- مجهول المؤلف . **أخبار مجموعة** ؛ تحقيق إبراهيم الأبياري ٠- ط ٠١- القاهرة - بيروت : دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

- مجهول المؤلف . **وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي** ؛ تحقيق لويس سيكو دي لوثينا ٠- مدريد : معهد الدراسات الإسلامية ، ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م .
- المقري ، أبو العباس أحمد بن محمد . **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** ؛ تحقيق إحسان عباس٠- بيروت : دار صادر ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .
- النباهي ، أبو الحسن علي بن عبد الله . **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا - أو تاريخ القضاة في الأندلس** ٠- بيروت : المكتب التجاري ، د.ت .
- الونشريسي ، أحمد بن يحيى . **المعيار المعرب والجامع المغرب لفتاوى علماء أفريقية والأندلس والمغرب** ٠- بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
- ياقوت ، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي . **معجم البلدان** ٠- بيروت : دار صادر ، (د.ت) .

ثالثاً - الدراسات الحديثة :

- بدر ، أحمد . تاريخ **الأندلس في القرن الرابع الهجري - عصر الخلافة** ٠- دمشق: مطابع ألف باء ، ١٩٧٤م .
- بروفنسال ، ليفي . **محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها** ؛ ترجمة محمد عبد الهادي شعيرة ٠- القاهرة : المطبعة الأميرية ، ١٩٥١م .
- بيريس ، هنري . **الشعر الأندلسي في عصر الطوائف** ؛ ترجمة الطاهر أحمد مكي٠- ط ١ ٠- القاهرة : دار المعارف ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- عنان ، محمد عبد الله . **الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال - دراسة تاريخية أثرية** ٠- ط ٢٠- القاهرة : مؤسسة الخانجي ، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م . **دولة الإسلام في الأندلس - العصر الثاني : دول الطوائف** ٠- ط ٣ ٠- القاهرة: مكتبة الخانجي ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .